صور جديدة من الأدب العربي

بين المعري وداعي الدعاة

تمهيد

«علم الامام ولا اقول بظنة ... ان الدعاة بسعيها تتكسب.»

«ابو العلاء»

أحقًا أن داعي الدعاة لم يحفزه الى كتابة هذه الرسائل إلى أبي العلاء الاّ قول المعري من قصيدة لهُ في اللزوميات :

غدوتَ مريض العقل والدين ، فالقني ... لتسمع أنباء الامور الصحائح ؟

وأن داعي الدعاة أراد أن يتعرف من أبي العلاء أنباء الامور الصحائح — كما حاول أن يقنعنا بذلك في رسائله — ليهتدي بهديه ؟ لقد حاول داعي الدعاة أن يدخل في روعنا ذلك ،كما حاول الرواة أن يقنعونا بان هذا البيت وحده هو السبب الذي حفزه الى كتابتها،

على أننا جديرون أن نتساءل مستفسرين : هل دارت بين المعري وداعي الدعاة رسائل اخرى غير هذه الرسائل ؟ فقد اخبرنا بعض الرواة أن المعري كتب الى داعي الدعاة يقول — :

« يد بخمس مئين عسجد وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار

تناقض ما لنا إلاّ السكوت لهُ ... وأن نعوذ بمولانا من النار »

فكتب اليه داعي الدعاة يقول :

«عز الامانة أغلاها ، وارخصها ... ذل الخيانة ، فافهم حكمة الباري »

ثم لا يزيد الرواة على هذا الخبر المبتور شيئاً ، فلا يقولون لنا : متى كانت هذه المكاتبة ؟ وكيف اقتصرت على هذه الابيات وخلت من عبارات المجاملة والادب التي نراها في بقية الرسائل التي دارت بين المعري وداعي الدعاة ؟ واين بقيتها ان كان لها بقية ؟ واية مناسبة دعت المعري الى كتابة هذين البيتين الى داعي الدعاة وهو لا يجهل خطره ومكانته الدينية ؟ ومتى ارسل المعري هذين البيتين ؟ أكان ذلك قبل تبادل هذه الرسائل ؟ فكيف لم يشر اليها داعي الدعاة ؟ وما باله يسأل أبا العلاء عن مذهبه ودينه مستفسراً بعد أن صارحه بهذين البيتين ؟ وما باله يطلب الهدى ممن لا هدى عنده ؟ وما حاجته الى السؤال بعد أن ظهر السر وانكشف الغطاء ؟

أم كتبت بعد هذه الرسائل ، والرواة يخبروننا بأنها قد انتهت بموته ، فيحدثنا بعضهم أن آخر رسالة وردت من داعي الدعاة الى المعري لم تصل اليه لأنهُ انتقل الى العالم الآخر وقت وصولها ، ويقول بعضهم بل مات بوفودها ، ويقول بعضهم بل عقب ورودها بقليل.

ولعل الأقرب الى المعقول أن يكون داعي الدعاة قد سمع هذين البيتين من أفواه بعض الناس في احدى مجالسه — الخاصة او العامة — فرد عليها حينئذٍ بقوله :

« عز الامانة اغلاها ، وارخصها ذل الخيانة ، فافهم حكمة الباري »

وهو بيت — على ما فيه من ركاكة وضعف — قلق القافية متكلف الصياغة جدير أن يلحق بنظم الفقهاء . على اننا لا نستبعد أن تكون هذه الرواية مختلقة من اولها الى آخرها ، فقد اضطرب رواتها فيها كل الاضطراب ، فزعم بعضهم أنها حدثت بين المعري وداعي الدعاة ، وروى آخرون انها حدثت للمعري في بغداد ، وأن فقهاء بغداد اغروا به اغراء وردوا عليه بهذا البيت ، وقال آخرون : بل بعث بهذين البيتين الى ابن حزم فأجابهُ عليها بذلك البيت ، وفي هذا الاضطراب ما يكفي للشك في أمرها . على أن أولى الرسائل التي بعث بها داعي الدعاة الى المعري تشعرنا بأنها كانت فاتحة المكاتبات بينهما .

لم كتبت هذه الرسائل ؟

ونعود الى السؤال الاول لنعرف السبب الذي حفز داعي الدعاة الى مكاتبة ابي العلاء ، أهو الرغبة الصحيحة في الاهتداء بهديه — كما زعم — ام الرغبة في التحرش به والتشنيع عليه وكشف مستوره وتسفيه امام الناس ؟ ونحسب أن نظرة هادئة الى هذه الرسائل كافية في اقناعنا بأنها كانت أقرب الى تعذيبه والتحرش به منها الى الاستفادة من علمه ورأيه .

فما الذي يحفز الداعي الى ذلك ؟ أهي غيرته الدينية ؟

كلا ، فلم يكن داعي الدعاة ممن تحفزه الغيرة الدينية الى مهاجمة المعري والتحرش به وفيه يقول أبو العلاء :

علم الامام — ولا اقول بظنة — أن الدعاة بسعيها تتكسب

وقد كانت دعوته من الدعوات الخطيرة وكان يسلك في اذاعتها على ما ذكر المؤرخون اخبث الطرق ، فقد كان باطنيًّا يدعو إلى المذهب الاسماعيلي وهو مذهب ينفيه الاسلام ويبرأ منهُ ، وسنوجزه في آخر هذا المقال للغرض التاريخي البحت . فإذا علمنا أن الغيرة الدينية لم تكن الباعث على مهاجمة المعري فأي باعث آخر أغرى داعي الدعاة به ؟ لقد كان ابو العلاء يمقت النفاق ويلعن المتجرين بالدين والمتكسبين بالعقيدة فيقول :

الدين متجر ميت فلذاك لا تلفيه في الاحياء الاّ كاسدا

وقد امتلأت كتبه — واللزوميات خاصة — بمثل هذه اللفتات، ونحن نجتزىء من ذلك بقوله :

طلب الخمائس ، وارتقى في منبر يصف الحساب لأمة ليحوطها
وتراهُ غير مصدّق بقيامة أضحى يمثل - في النفوس - ذهوطها

وقوله : رويدك قد غررت وانت تدب بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها — على عمد — مساء
يقول لقد غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء
اذا فعل الفتى ما عنهُ ينهى فمن جهتين لا جهة أساء

وقد كان داعي الدعاة من تلك الفئة التي تعيش من الاتجار بالدين والتظاهر بالورع والتقوى ، وتتخذ من ذلك أحبولة لتصيد الأغرار . على ان أبا العلاء لم يقتصر على ذم هذه الفئة — على وجه التعميم ، بل ذم الدعاة — على وجه التخصيص ، فقال :

علم الامام — ولا أقول — بظنتي ان الدعاة بسعيها تتكسب

وقال في مكان آخر من اللزوميات :

ضاع دين الداعي فرحت تروم الـ ـدين عند القسيس والشماس

وقال في مكان ثالث :

لا يعجبنك داعٍ قام في ملإ بخطبة زان معناها وطوّلها
فما العظات — وان راعت — سوى حيل من ذي مقال على ناس تحوّلها
وانما رام نسواناً تزوجها بما افتراهُ وأموالاً تموّلها

وما نحسب مثل هذا التشنيع بالمين وقعهُ على داعي الدعاة ، وهو صاحب النفوذ العظيم

***

فاذا تركنا ذلك جانباً ، رأينا أبا العلاء يسخر في لزومياته أيضاً من الحاكم بأمر الله الفاطمي — بعد موته — ويهزأ علانية من القائلين بعودته ، فيقول :

مضى « قيل مصر » الى ربهِ وخلّى السياسة للخائل
وقالوا « يعود » فقلنا « يعود » بقدرة خالقنا الآئل
اذا هبّ زيدٌ الى طيّئ وعاد كليب الى وائل

الى أن يقول: وتصغى الى المين أسماعنا وتصبو الى زخرف القائل

وما نحسبهُ إلا يعنيه حين يقول :

لو قال سيد غضا بعثت لامة من عند ربي قال بعضهم نعم

وقد كرر هذا المعنى في رسالة الغفران أكثر من مرة[١]. ولا تنس انهُ عرض بميمون القداح في رسالة الغفران أيضاً ، وميمون القداح هو رأس الدولة الفاطمية يغضبون لهُ — وإن كانوا لا يجهرون للناس بالانتماء اليه .

***

ونحسب أن في بعض هذا ما يكفي للتحرش بأبي العلاء والكيد لهُ والرغبة في تفسيقه أمام الناس ، ولقد حاول المعرّي أن يترضى داعي الدعاة — بكل ما أوتي من قوة وعا سلك من عبارات المجاملة وأدب الخطاب — فلم يفلح ، وأبى داعي الدعاة إلا احراجه واذاعة رأيه على الناس جهرة ، كأن لهُ ترة عندهُ . وقد اتخذ هذه المناوأة قول أبي العلاء :

غدوت مريض العقل والدين فالقني ... لتسمع أنباء الامور الصحائح

نكأة يبرر بها سؤاله والتظاهر بالرغبة في الاستفادة من علمه وهديه — كما زعم —

ولقد كان لهذه الرسائل صيت ذائع ودوي هائل . واقتن الناس في أقوالهم ، فقال بعضهم إن داعي الدعاة أفحمهُ ثم دسَّ لهُ السم فمات . ونحن نستبعد أن يكون داعي الدعاة قد دسَّ له السم ، لان داعي الدعاة لم يكن يعنيه أن يفتك بالمعري بقدر ما يعنيه أن يشنع عليه ويظهره بمظهر المكابر المائل عن الشريعة . وقد لجأ المعري الى كثير من عبارات المجاملة وأدب الخطاب مع داعي الدعاة ، ورشاه بكثير من عبارات الثناء التي ألفناها من ابي العلاء والتي نعتقد انها كانت من اكبر الاسباب التي حببت فيه سائليه وجعلتهم له أنصاراً ، فان اكثر الناس لا يعنيهم الدفاع عن الرأي بقدر ما يعنيهم الدفاع عن انانيتهم ، فاذا مدحت أحدهم نسي ما جاءك به ورجع عما أراده من المخاصمة واللجاج .

وقد ذكر بعض الرواة أن المعري شرب السم — بعد ان نصحه داعي الدعاة وأمره بالحضور اليه والاقرار أمامه بالاسلام — وهو قول لم يؤيده دليل ، على انهُ لو وقع لكان له صدى ولأشار اليه ولو واحد من الشعراء الذين رثوه وقد نيفوا على الثمانين شاعراً . ويقول بعض الناس : « لعله مات غمًّا بعد أن ظهر أمره وهتك ستره » ونقول بدورنا : «ولعل اجله المحتوم قد وافاه حينئذ فأول الناس هذه المصادفة شتى التأويلات».

---

(١) على ان المعري لم يقتصر على ذم الحاكم وحده فقد ذم جميع الولاة والحكام في مواطن كثيرة ، وكان ذلك مما يضبهم عنه، وقد شكا المعري من ان الولاة كانوا يغرون بتعذيبه.
وكيف لا يغرون بتعذيبه واتكيد له وهو القائل :

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها ... وعدوا مصالحها وهم آجراؤها

والقائل : ساس الانام شياطين مسلطة ... في كل مصر من الوالين سلطان

من ليس يحفل خمص الناس كلهم ... ان بات يشرب خمراء وهو مبطان

والقائل : يسوسون الامور بغير عقل ... فينفذ أمرهم ويقال ساسه

ومن حق القارىء أن يعرف من هو داعي الدعاة وما هو مذهبه الاسماعيلي الذي وعدنا بالاشارة اليه في هذا المقال حتى يقدر تماماً شخصية مناظر ابي العلاء ، وكيما يتبين مرمى فيلسوف المعرة . أما داعي الدعاة فقد كانت رتبته تلي قاضي القضاة وكان يتزيا بزيه وكان ينوب عنه أحياناً ، وهو يتناول مائة دينار كقاضي القضاة سواء بسواء

قالوا : « وكان عالماً بجميع مذاهب أهل البيت يقرأ عليه ، ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه الى مذهبهم ، وبين يديه من نقباء المعلمين اثنا عشر نقيباً ، وله نواب كنواب الحاكم في سائر البلاد ، ويحضر اليه فقهاء الدولة ولهم مكان يقال له دار العلم ولجماعة منهم على التصدير بها أرزاق واسعة » قالوا : « وكانت وظيفته من مفردات الدولة الفاطمية »

المذهب الاسماعيلي

أما المذهب الذي نصبوا أنفسهم لاذاعته والدفاع عنه فهو المذهب الاسماعيلي ، ويسمون الاسماعيلية بالباطنية لأنهم يقولون « ان لكل ظاهر من الاحكام الشرعية باطناً ولكل تنزيل تأويلا » . والاسماعيلية كما قالوا — مرتبة على تسع منازل دعوة بعد دعوة ، وسرها محجوب عن غير أهلها ، وقد بالغوا في تكتمه والاحتفاظ به ووضعوا لذلك نظاماً أدق من نظام الماسونية وأحفظ لاسرارها . ومن اعجب ما في الاسماعيلية انها تنتهي بالاحتكام الى العقل وترك الشرائع والديانات ظهريًّا ، حينما يسلك اصحابها في الوصول الى هذه النتيجة كل طريق يأباها العقل ولا تلائم المنطق الصحيح ، لأنها معتمدة على المغالطات اللفظية والمشابهات المرضية والبعد عن جواهر الأشياء وحقائق معانيها وتلمس مواطن السفسطة والتهويش فيها .

والدعاة يبدءون بالتمدح بالشريعة الاسلامية والتغني بفضائل النبي ثم يتخذون من ذلك وسيلة الى بث آرائهم وبعد ان يخلد اليهم المسترشد بالثقة ويلقي اليهم بقياده — يبدءون في :

﴿ المرتبة الاولى ﴾ — بتشكيكه في دينه ويعرضون عليه طائفة من المعميات والاسرار الغامضة ليزلزلوا بها عقيدته ويقينه الثابتين ، فاذا تم لهم ذلك ضنوا عليه بكشف هذه الأسرار وفك تلك الطلاسم[1] وثمة يقول له الداعي :

« ياهذا ، إن الدين لمكتوم ، وان الاكثر له منكرون وبه جاهلون ، ولو علمت

---

(١) وكان يقول له الداعي : « ولا تعجل فان دين الله أعلى وأجل من ان يبذل لغير اهله ويجعل غرضاً للصبى » ثم يأخذ عليه عهوداً ومواثيق مستنداً في ذلك الى تأويل الآية « واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم واخذنا منهم ميثاقاً غليظا » وما ماثلها من الآيات . ثم يقولون له : « اعطنا صفقة من يمينك وعاهدنا بالمؤكد من ايمانك وعهودك ان لا تفشي لنا سراً ولا تظاهر علينا احداً ولا تطلب لنا غيلة ولا تكتمنا نصحاً ولا توالي عدواً الخ فاذا اعطى العهد قال له الداعي : « اعطنا جعلاً من مالك امام ما كشفنا لك من الاسرار » وثمة يقدر الداعي الجعل الذي يراه — فان امتنع أمسك عنه .

هذه الامة ما خص الله به الأئمة من العلم لم تختلف . وان الآفة التي نزلت بهذه الامة وشتت الكلمة وأورثت الاهواء المضلة هي ذهاب الناس عن أئمة نصبوا لهم وأقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقيقتها ويحفظون معانيها ويعرفون بواطنها . غير ان الناس لما عدلوا عن الأئمة ونظروا في الامور بعقولهم واتبعوا ما حسن في رأيهم وقلدوا سفلتهم واطاعوا سادتهم طلباً للدنيا التي هي بأيدي الفسقة الذين يحبون العاجلة ويجتهدون في مكايدة الرسول (ص) في أمته وتغير كتاب الله ومعاندة الخلفاء الأئمة » وهكذا إلى ان يقول

« فان دين محمد ليس كما عرفته العامة سهلاً هيناً بل هو صعب مستصعب وعلم خفي غامض ستره الله في حجبه وعظم شأنه من ابتذال اسراره ، فهو سر الله المكتوم الذي لا يطيق حمله ولا ينهض بأعبائه إلا ملك مقرب أو نبي مرسل او عبد امتحن قلبه للتقوى » فاذا أنس منه اقبالاً نقله الى

﴿ المرتبة الثانية ﴾ — وفي هذه المرتبة يقرر له ان الله اختار لعباده أئمة يهدونهم الى الصواب ويبينون لهم شريعته التي نصبهم الله لحفظها على ما أراده . فاذا عرف ذلك نقله الى

﴿ المرتبة الثالثة ﴾ — فيقرر له ان الله جعل عدد الأئمة سبعة كما جعل عدد الكواكب السيارة سبعة — وقد كانوا حينئذ لا يعرفون منها إلا سبعة — وكما جعل السموات سبعاً والأرضين سبعاً ومنافذ الوجه سبعاً الى آخر هذه المغالطات . ويعدون من هؤلاء الأئمة محمد بن اسماعيل زعيم مذهبهم ؛ ولا يلبثون أن يقرروا له أن عنده وحده علم المستورات وبواطن الامور التي لا يمكن أن توجد عند غيره فهو وحده الذي عنده سر الله تعالى وتأويل آياته الخ ويقررون له ان دعاته هم العارفون بذلك كله من بين سائر طوائف الشيعة لأنهم أخذوا عنه . فاذا اقنعوه بذلك نقلوه الى

﴿ المرتبة الرابعة ﴾ — وثمة يقرر له الداعي ان عدد الانبياء الناسخين لشرائع المبدلين لأحكامها سبعة كعدد الأئمة وعدد الكواكب الخ وان كل واحد منهم لا بد له من صاحب يأخذ عنه دعوته ويظاهره عليها في حياته ثم يورثها خلفاً له وهكذا . ويعدون من هؤلاء السبعة محمد ابن اسماعيل الذي انتهى اليه علم الاولين والآخرين وعلم بواطن الامور وكشفها الخ ويؤكدون له ان الهداية والرشد في موافقته والحيرة في العدول عنه . فاذا تم لهم ذلك نقلوه الى

﴿ المرتبة الخامسة ﴾ — وفيها يقررون انه لا بد لكل امام قائم في كل عصر من حجج متفرقين في جميع الارض وعدتهم اثنا عشر رجلاً بعدد بروج الكواكب وشهور السنة لان الله لم يخلق هذا النظام عبثاً ثم ينقلونه الى

﴿ المرتبة السادسة ﴾ — وفيها يفسرون شرائع الاسلام من صلاة وزكاة وحج وطهارة بأنها رموز وفروض قد وضعت لمصلحة العامة وسياستهم حتى يشتغلوا بها عن بغي بعضهم على

بعض، وان لهذه الرموز معاني غير ما تدلُّ عليه ظواهرها. ويحقرون له أمر السميات ويهوّنون عليه شأنها طالبين اليه أن يقتصر على الأدلة العقلية وحدها — بعد أن يجبوه في الفلسفة والنظر في كلام افلاطون وارسطو وفيثاغورس واضرابهم ثم ينقلونهُ بعد ان يثقوا منهُ الى :

﴿ المرتبة السابعة ﴾ — فيقررون لهُ أن الناصب للشريعة لا يستغني بنفسه ولا بدّ لهُ من صاحب معهُ يعبر عنهُ ليكون أحدهما الأصل والآخر هو الذي صدر عنهُ — كالعالم السفلي — الذي صدر عنهُ . ثم ينقلونه الى :

﴿ المرتبة الثامنة ﴾ — وفيها ان مُدَبّر العالم انما تقدّم على الصادر عنهُ تقدم العلة على المعلول وثمة كانت الاعيان كلها ناشئة وكائنة عن الصادر الثاني . وان السابق مع ذلك لا اسم لهُ ولا صفة ولا يعبر عنهُ ولا يقيد ، فلا يقال هو موجود ولا معدوم ، ولا قادر ولا عاجز ، ولا قديم ولا محدث. بل القديم أمره وكلمته والمحدث خلقه وفطرته . وان الثاني يدأب في أعماله حتى يلحق بمنزلة السابق . وليس معنى يوم القيامة والقرآن والثواب والعقاب كما يفهمهُ العامة، بل هو حدوث أدوار عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب الخ . ثم ينقلونه الى :

﴿ المرتبة التاسعة ﴾ — وهي غاية ما يرمي اليه الداعي بكل ما سلكهُ من ضروب السفسطة والمغالطات والثرثرة ، وفيها يقول للمدعو : « ان كل ما ذُكر من الحدوث والأصول رموز الى معاني المبادىء وتقلب الجواهر ، وليس الوحي إلا صفاء النفس ، وان الانبياء ينظمون الشرائع بحسب حاجة الدهماء فهم لا يصلحون للخاصة . أما انبياء الخاصة فهم الفلاسفة وحدهم . ويقولون لهم ان وجود الامام انما هو في العالم الروحاني اذا صرنا اليه بالمعارف والرياضة وان ظهوره الآن انما هو ظهور أمره ومواهبه على لسان أوليائه »

أرأيت من هو داعي الدعاة الذي يتصدى لتبكيت المعرّي والتشنيع عليه باسم الدين ؟

أرأيت هذا الرجل الذي ينقض الدين من أساسه ثم يُعنّف المعرّي جاهداً لأنهُ خالف الدين مخالفة صريحة حين ترك أكل اللحوم رحمة بالحيوان ؟!

جنوا كبائر آثام، وقد زعموا ان الصغائر تُجني الخلد في النار

ألا ترى الى هذا الرجل الذي ينطبق عليه قول المعرّي :

يا ظالماً عقد الدين مصلياً من دون ظلمك يعقد الزنار

وقوله : بحقيقة الله تعبدتنا وأنت عين الظالم اللاهي

تأمرنا بالزهد في هذه الدنيا ، وما همك إلا هي

والآن بعد أن عرفنا حقيقة هذا الرجل فلننظر على ضوئها ما حوتهُ الرسائل الهامة التي دارت بينهُ وبين المعرّي ، وموعدنا بذلك المقال التالي

كامل كيلاني